

الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم قراءة في المنهج

الاستاذ الدكتور
عبد الامير كاظم زاهد
جامعة الكوفة / كلية الفقه

الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم قراءة في المنهج

الاستاذ الدكتور

عبد الامير كاظم زاهد

جامعة الكوفة / كلية الفقه

التفسير العلمي للقرآن مقدمة لم يحظ نص من النصوص السماوية، او مما انتجه العقل الانساني، بمثل ما حظي به القرآن الكريم من جهود لبيان معانيه والكشف عن اسراره، فقد نزل القرآن على امة العرب في زمن كانت تعيش فيه في مجتمع لم يعرف مفاصل الحضارة القريبة من الرقي للامم المجاورة، فقد كانت امة امية، تعيش وضعا معرفيا محدودا، جاءها هذا النص وهو يشتمل على المعارف الكونية والاحكام القانونية والقيم الاخلاقية والتصور الكوني الشمولي للانسان ازاء الله والكون والمجتمع الانساني برمته. وجاء خطابا للناس جميعهم منذ عصر نزوله حتى يوم القيامة. وهذا الخطاب الشامل يقتضي ان تستوعب مبانيه وآياته بالضرورة «كل تطورات العقل الانساني وانجازاته العلمية والفلسفية». وبخلاف هذا، فان هذا النص اذا تخطته حقيقة عقلية او علمية تجريبية، او تقاطعت معه، انتفى ان يكون نصا معصوما لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وانتفى كونه نصا مطلقا يستهدف الهداية والرشاد للانسان مطلقا، لان مرجعيات ثقافية ستتخطاه وتتقاطع معه، وهذا يتنافى وذلك الافتراض الذي يتعين اعتماده، وهو ان القرآن الكريم فوق مكانية المعرفة وزمانيتها ومستوياتها المتعددة، بل فوق عموم مستوى الوعي الانساني مهما تعددت رتبته.

والهداية والرشاد: برنامج فكري منظم يستهدف الحق في الاعتقاد، والخير في العمل، والفضيلة في السلوك، فلا بد من ان يحتوي تصورا عقديا يعد عبارة عن مجموعة حقائق كونية دالة على التوحيد وضرورة النبوات والكتب وضرورة الاعتقاد بيوم الحساب، وهذا يلزم ان تكون معرفياته عن اسرار القوانين التي تسير المادة، والقوانين الاجتماعية التي تنظم حركة المجتمعات والحضارات، مجموعة حقائق يقينية، ويلزم، ايضا، ان تكون احكامه عبارة عن قواعد قانونية متعلقة بالمصلحة في اقتضاء الوجوب والندب، والمفسدة في اقتضاء الكراهة والحرمة، علاوة على ان تكون قيمه قيما اخلاقية مركزية تربط بين المفصلين: العقدي والقانوني.

لذلك، فان هذا النص الالهي المعصوم من الخطا والزلل، في كل من مناهجه ومعارفه، لا بد من ان يكون قد تضمن في مبانيه الثابتة (الفاظه) معاني متعددة، لكل جيل من اجيال البشر حظه في استمطار التجليات من النص، وهذا هو المسوغ لتعدد التفاسير عند المسلمين بتعدد اجيالهم، وربما هو المسوغ لعدم تصدي النبي (ص)

الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم قراءة في المنهج آد عبد الامير كاظم زاهد
والائمة (ع) لتفسيره كله، لنلا يتوقف العلماء حينئذ عن محاولات الكشف عن
اسراره، ولعل هذا هو الاساس وراء ظهور ما يطلق عليه التفسير بالراي (العقلي)
بمجرد مرور نصف قرن على سيادة التفسير بالمأثور، وان ظل هذا اي التفسير
بالمأثور ركنامهما في التفسير الى يومنا هذا.

وطبقا للفرضية التي مر ذكرها، من ان لكل جيل حظه من تجليات النص، وفقا
لتطور العقل، فان تطور «المعرفة» الانسانية غير المستقاة من الوحي متى حصلت،
يحصل معها اجراء عرضها على القرآن اما لاستجلاء مدى تعبيرها عن الحقيقة، او
لاثبات معصومية النص، او للكشف عما اجمله النص، او لبيان اسرار الخليفة التي
اتكا عليها النص القرآني للوصول الى ربوبية الله للخلق، ربوبية وحدانية.

ومن تلك المحاولات: الكشف عن اسرار القرآن من خلال المكتشف العلمي
التجريبي للفلك او فيزياء المادة او كيمياء اجزائها او الطب او الهندسة او الرياضيات
او العلوم النفسية والتربوية ومنها الباراسايكولوجي.

وازاء هذه المحاولات، نشأت «اشكالية» في هيكل المرجعية الثقافية للمعرفة
الاسلامية، فقد لاقت هذه المحاولة قبولا مطلقا من بعض العلماء، ولوما شديدا من
قبل علماء آخرين، وقبولا مفصلا مشروطا من قبل فريق ثالث، ولكل وجهته ودليله
ومرتكزاته وبنيته لموضوع الرفض او القبول، فصارت مشروعية هذه المحاولة محل
اخذ ورد، لذلك لم تقع هذه المحاولة موقع المسلمة منهجيا ومعرفيا، بل كونت احدى
الاشكاليات في الفكر الاسلامي لاختلاطها بما سوق من انها آي المحاولة عبارة عن
اسقاط معاصر للفكر الانساني المحدود وغير المعصوم على نص الهي مطلق
معصوم، فهل التفسير العلمي هو، فعلا، اسقاط للمعرفة البشرية على النص القرآني،
او انه اختراق لهذا النص، او انه اداة لبيان اسراره؟ فاذا حكمنا بانه اسقاط او
اختراق، دخلنا في مشكلة اعتقادية خطيرة، واذا حكمنا بانه محاولة لبيان اسراره
فهل هذه المحاولة تكفي وحدها اداة او انها تكفي بشروط محددة، بوصفها واحدة من
ادوات بيان النص، وعليه فهل تقبل المحاولة، بناء على هذا الفرض، مطلقة بلا
ضوابط منهجية واصول اساسية او تقيد بمجموعة من الضوابط؟ وازاء ما يتوهمه
جمع من الكتاب ان ذلك عبارة عن رد فعل ازاء الهزيمة الحضارية للمسلمين في
مطلع القرن العشرين للفارق بين وضعهم الحضاري والوضع الحضاري الاوربي،
فهل التفسير العلمي للقرآن هو من تطلعات القرن العشرين او ان له جذورا تاريخية
في القرون الاسلامية الاولى التي كونت الثقافة حول النص؟ واذا كان «العلماء»
المعاصرون، قد انقسموا في الاجابة عن هذا السؤال الى فرق، فهل بدء المحاولة
كان في القرن الرابع؟ وترتيباً على اثبات نشأتها آنذاك، فهل كانت قد واجهت المواقف
الحديثة نفسها، او المعاصرة ازاء التفسير العلمي؟ ثم ما الموقف الراجح من هذا
الاتجاه؟

المبحث الأول

المقدمات الأساسية

المقدمة الأولى

لا يشك احد في ان نظرية المعرفة المقبولة عند المنصفين تجعل وسائلها الوحي (النص)، والعقل (الفلسفة)، والتجربة (العلم التطبيقي)، الا فرق من اهل العرفان الذين ينقسمون بين اعتبار «الفلسفة» و«التجريب» وسائل بدائية ومعها ظاهر النص، والوسيلة العرفانية للمعرفة هي الكشف والحدس والالهام والنور الالهي المقذوف في القلب، ومهما يكن من امر اختلاف الناس في وسائل المعرفة فهناك مجموعة حقائق تتفق في الجوهر وتختلف في المصدر، وهي: وجهة القراءة ونوع المقروء وطبيعة القارى.

فالحقائق، من جهة المصدر، حقائق دينية مصدرها النص، وحقائق عقلية مصدرها العقل والفلسفة، وحقائق علمية تجريبية مصدرها التجربة، وحقائق روحية صوفية عرفانية تخترق هذه الحقائق عرضاً، ولا توازيها طولاً.

وواضح ان السبب في علوية الحقيقة الدينية على الحقائق الاخرى هو ان مصدرها النص، وان النص من عند الله، وان الله هو العليم مطلقاً والحكيم مطلقاً، فله مطلق الكمالات، لكن تعدد دلالات النص، ووجود المتشابه، وكونه خطاباً لجميع الاجيال على اختلاف مستوياتها الحضارية يجعل النص من جهة الفهم البشري لهذا النص، وليس من جهة النص نفسه ومن هنا نشأ خلاف كبير، فمن اعتمد على مصدرية النص وتفسيره بالاثار، اعتقد علوية النص وسمو ثقافته على الحقائق الاخرى (عقلية او تجريبية)، ومن ساوى في التعرف على حقائق الاشياء بين الفهم البشري للنص وبين كل من العقل والتجربة قرر ان مستفاد الفهم البشري يكاد يقترب في قراءاته من الحقيقة ايا كان طريق الوصول اليها. لذلك نلاحظ ان هذا الخلاف قد حصل، تطبيقاً، في اواخر القرنين: الثالث والرابع، حيث تم فصل الفلسفة عن الدين بتطرف الفريقين، فظهر اتجاه الغزالي في كتابه «تهافت الفلاسفة» و«المنقذ من الضلال» و«القسطاس المستقيم» بعد فتوى ابن الصلاح الشهرزري الذي سفه الفلاسفة وعد الفلسفة اس الضلال، وبمضي قرن على هذا الاشكال الحضاري ظهرت موجة التوحيد في مضمون الحقيقة الدينية مع الحقيقة العقلية الفلسفية، اظهرها ابن رشد في نقده للتهافت فكتب «تهافت التهافت» و«مناهج الادلة» و«فصل المقال». وانتهى الى ان الحق لا يعارض الحق بل يؤيده ويعضده، وان القاطع العقلي لا يتعارض مع قاطع في النص اذا كان قطعي الصدور وقطعي الدلالة (١) واذا كانت المشكلة (ظاهر التعارض بين الدين والفلسفة) قد وجدت طريقها للحل بهذا الانجاز الرشدي، فان الحقيقة: الدينية والعلمية التجريبية هي مشكلتنا في الوقت الحاضر، فهي تحتاج الى انجاز يماثل الانجاز الرشدي للايمان بوحدة الحقيقة.

المقدمة الثانية :

وترتبا على وحدة الحقيقة الكونية، وتساند كتلة القوانين الطبيعية وكتلة القوانين الشرعية، لصدورهما من منشأ واحد كونهما وضعا لهدف واحد هو تسيير اجزاء الكون وفق انظمة متساندة يحكمها في الاخر نظام كوني واحد، فان حركة الانسان يلزم ان تكون منسقة مع حركة المادة الكونية وفيزيائها لئلا يحصل التعاكس والتضاد ويحل فساد المعطيات محل صلاح التكامل بين الانسان والكون.

لهذا، فان التوصل الى حقائق الاشياء في نطاق فيزياء الكون او قوانين المجتمعات او خبايا النفس الانسانية يحتاج الى رؤية شمولية تقتضي وحدة ما تتوصل اليه جهود البشر اذا سارت مسارا صحيحا، فكلها تؤدي الى مفهوم التوحيد ومعطياته على مستوى العقيدة الكونية الشمولية وقوانين التشريع ومنظومة الاخلاق للوصول الى الحق في الاعتقاد والخير في السلوك والفضيلة في القيم الساندة للسلوك.

لهذا، يلزم ابتداء الانطلاق من موقف اساس مؤداه:

ان العلم بالقوانين الطبيعية (بالتجربة) يؤدي الى فهم الحكمة الالهية في الخلق ويسند ضرورة الايمان والعمل بما صدر عن تلك الحكمة في مجال التشريع والاخلاق، فلا فصل بين الحقيقة العلمية ووسائلها والحقيقة العقلية ووسائلها والحقيقة الدينية ووسائلها اذا احكمت بمنهج موصل لليقين في هذه المجالات.

المقدمة الثالثة:

لما استقر في صلب عقيدتنا ان الخطاب القرآني للناس هو خطاب عالمي ثابت دائم مستمر شمولي شامل، معجز الى يوم القيامة، وهذا ما لا خلاف فيه عند المسلمين، فان الثمرة التي تخرج من هذا المنطلق هي صحة مقولة ان النص القرآني لما كان قد صدر من الله شديد القوى، فانه لا يقبل ان يتحدد في مكان ولا تؤثر عليه آثار زمن ما، ولا يخاطب بشرا في زمن ما، ولا نسبية معرفة معينة للانسان، فهو فوق مكانية النص ومستلزماتها على نوع النص، وزمانية النص وآثارها، وفوق نسبية المعرفة الانسانية ومستلزمها وعي النص.

وترتبا عليه، فان لكل جيل استعداداته الخاصة به وفقا لدرجة تحضره واشتغال ملكاته وتقدم تقنياته، لكل جيل استعداداته الخاصة به من النص، فان تطور النظر العقلي، كفيل بان يعيد قراءة النص وفقا لما وفره من قدرة على اكتشاف معان من النص لم يكتشفها الجيل السابق او الاسبق، لا لنقص في عقلية ذلك الجيل، وانما لان ذلك الجيل لم يكن قدامتلك بعد ادوات الاستمداد، ولم تظهر في اوقته المكتشفات العلمية والعقلية التي يرغب في اكتشاف ما اذا كان النص يتعارض معها او يوافقها، او على الاقل قد سكنت عنها بحيث تركها للعقل الانساني.

اذا لكل عصر حصة من المعاني المتعددة المخبوءة في النص القرآني الثابت في الفاظه ومبانيه، المتعدد في مضامينه ومعانيه، طالما صمم بالاصل لارشاد جميع

الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم قراءة في المنهج آد عبد الامير كاظم زاهد

البشر مهما اختلفت بيئاتهم وعقلياتهم وحضاراتهم وتقنياتهم ونوع مشكلاتهم الفردية والاجتماعية، العقلية والتجريبية.

لهذا، فالمعاني الجديدة المستفادة من النص القرآني، اساسا، لها مشروعية في التصور الاسلامي العام، من جهة المقدمة الكبرى التي سقناها قبل قليل، ولا يبقى اذا الا التاكيد من منهج التوصل الى هذا المعنى الجديد: هل هو منهج يقيني او ظني؟ وهل الاستفادة يقينية او ظنية؟ والخلاف هنا سيكون في المصاديق لا في المفهوم العام او الاعم، على ان الحاجة ماسة وقائمة لتحديد المنهج الذي يثبت يقينيا هذا التطابق بين الحقيقة القرآنية والمكتشفة بالجهد الانساني.

ان ثمره هذا التحديد تؤدي بنا الى رفض نقل تجربة اوروبا في صراعها بين الدين (الكنيسة) والعلم ابان عصر التنوير والبروتستانتية، فالصراع كان في جوهره بين العلم وبين وعي رجال الكنيسة الذي عد قولاً لله، وليس قولاً للبشر، او بين فهم البشر للإنجيل على فرض كونه غير محرف، او قد كتب بوحي غير مباشر (بمعناه فقط) لا بلفظه ومعناه كالقرآن الكريم، لهذا فان مسوغات العلمانية الاوروبية، مستمدة من هذا التحليل لطبيعة القوى المتصارعة، ونقله اي الصراع الى الشرق الاسلامي لا داعي له ولا باعث، لاننا نؤمن ان العلم لا يتقاطع مع النص، والعقل لا يتقاطع مع النص، لان كلاهما قطعي، والنص قطعي في صدره فلا مشروعية لفهم العلماني العربي قديما وحديثا، ولا بد من ان يستقر وضع العلم الاسلامي على اعتبار الاسلام هو الايديولوجية العامة لحركة مجتمعاته الحضارية، شريطة استحداث منهجية يقينية في فهم النص، ومراعاة الحقائق اليقينية في اشتقاق القاعدة العامة في العقليات او التجريبيات، للتحقق من يقينية الفهم الانساني للنص، والفهم الانساني للحقيقة العقلية الفلسفية، والحقيقة التجريبية التطبيقية للعلم.

المقدمة الرابعة:

لما كان لكل عصر وفقا لظروف تشكله مشكلاته الخاصة به:

حضاريا واجتماعيا وسياسيا واقتصاديا، فان دور المجتهد المسلم هو الانشغال في فهم المشكلات المعاصرة بوحي حاضر وذاكرة مستانسة بطول مشكلات الماضي وفقا للمذهبية العامة للاسلام، ودور كهذا ينبغي ان يركز الجهد فيه على تحليل عناصر المشكلة ومسبباتها الخارجية واجواء ظهورها وآثارها وفقا لمدى استجابة الناس لها وردود فعلهم ازاءها، فمشكلة الارجاء، وكفر الفاسق او ايمانه، والجبر والتفويض وغيرها مشكلات «تموضعت» في ذلك العصر.

اما عصرنا فله مشكلاته التي تتطلب حلا اسلاميا معاصرا، فاما ان تواجه بثقافة الذاكرة او بثقافة معاصرة، فاذا ووجهت بثقافة الذاكرة سحبتنا الماضي على الحاضر، وجاء الحل بلا روح ولا اندفاع ولا يلامس طبيعة الوعي بالمشكلة.

اما اذا ووجهت بفهم معاصر فاننا نسحب طبيعة وعي الحاضرين لها، ونقرر لها من النص الاسلامي حلا، وافضل تطبيق على ذلك موضوع التفسير بالمأثور والتفسير

الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم قراءة في المنهج آد عبد الامير كاظم زاهد

بالرأي حيث ان الحل الاستراتيجي لمشكلات العصر الاسلامي الاول كان صادرا من المعصوم، على طريقة اعطاء المفهوم العام او القاعدة الكبرى تاركا للانسان ان يجتهد في الحاق المصدايق بها او الصغريات، فالاولوية على هذا للماثور، اذا دور العقل لا يخترق النص (مع افتراض صحة صدوره عن المعصوم طبعاً) انما يتحرك حوله او داخله. لهذا، فالتفسير بالرأي متى خرج عن هذين النطاقين خرج عن المدار الفعلي لتلمس الحقيقة، فرفضه ورده موقف له وجاهته، وعلى هذا نفس قول المعصوم انه «من فسر القرآن برأيه واصاب فقد اخطأ، او فليتبوا مقعده من النار».

اما وبعد انقضاء عصر المعصوم (على رأي من يراه النبي (ص) فقط)، او (على رأي من يراه النبي (ص) والائمة الاثني عشر (ع) فان مشروعية التفسير بالرأي تتوقف على مدى يقينية المنهج فقط. اما من الجهة العامة فان مشروعيته ثابتة لطبيعة الخطاب القرآني لعموم العقل الانساني على امتداد الزمن وتعدد المكان، واختلاف نمط المعرفة النسبية للانسان، وعليه فلا يرفض التفسير العقلي من حيث عموم (الكبرى)، انما من جهة نوع الاستمداد ومنهجيته، فلا مكان لمن يراه انه قول على الله بغير علم، اذ التعبد بالظاهر هو تكليف غير المعصوم في فهم الحقائق الدينية عموماً، اذ لا يستطيع غير المعصوم القطع بمراد الله، على ان الظن نوع من العلم معتبر اذا انسد طريق القطع كعدم وجود الماثور، او عدم الاطمئنان الى صحة صدوره، او تعدد دلالاته، فان الظن وفق منهج سليم كاف ومعذر لقوله تعالى: (لا يكلف الله نفساً الا وسعها) (٢) او (الا ما آتاه) (٣). هذا فضلاً عن وجود احتمال ان يكون النهي في الحديث عن التفسير بالرأي محمولا على من قال بالقرآن برأيه في المشكل والمتشابه، اي كل ما لا يعلم الا من طريق النقل، او عموم ما لا يستند الى دليل او برهان او من يستخدمه لهواه او رأيه، او تفسير الايات التي لا تفسير لها بالنقل مثل اسباب النزول ومعرفة الناسخ، وربما للتحرز المطلق من تفسير النص، والا فمع سد باب اعمال العقل فان ذلك يستلزم تضییع الامر الالهي بتدبر القرآن، فقد قال عز من قائل: (افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها) (٤) وقوله (ليدبروا آياته وليتذكر اولوا الالباب) (٥). بل لو كان التفسير بالرأي غير جائز مطلقاً لكان الاجتهاد غير جائز، بل من المعلوم اختلاف الناس في التفسير، ولولا الرأي لما اختلف الناس، والحق ان ما ثبت فيه ماثور صحيح لا يمكن تجاوزه البتة ولوورد رأي يعززه او حقيقة علمية تسنده فذاك، وان لا يخوض فيه الا من امتلك ادوات كشف معاني النص واسرارها مثل علوم اللغة والبلاغة والقراءات والعقيدة واصول الفقه وعلوم القرآن، اضافة الى عبقرية مصقولة بالضبط المنهجي، ولوجاء ماثورا وعضده رأي فلا مانع منه.

المبحث الثاني

التفسير العلمي تعريفه - وتاريخ نشأته - وتطوره

التفسير العلمي تعريفه: عرف الباحثون التفسير العلمي للقرآن تعريفات متعددة، اذكر منها قول الذهبي انه «ما يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها» (٦) ونرى انه: «اتجاه يتناول النص القرآني من خلال منظور المكتشف العلمي التجريبي او يرده الى اصل قرآني».

واعني بالاتجاه قواعد منهجية تتولد منها مجموعة معارف، واريد بالمكتشف العلمي التجريبي، نتائج التجارب التطبيقية للعلوم المتعددة، كالفلك والفيزياء والكيمياء وعلوم الحياة والرياضيات، وانه اما مبين للنص من خلال المعرفة الانسانية لهذه التخصصات، او راد لهذا الانجاز العلمي الى اشارة قرآنية.

نشأته: يعتقد بعضهم ان التفسير العلمي من مستجدات القرن العشرين، بسبب غزو اوروبا للعالم الاسلامي بعد تحقيق نهضتها العلمية التجريبية.

والحق، ان في هذا اختزالا لتجربة عرفها تاريخ الثقافة العربية الاسلامية، فقد كان القرن الثالث هو قرن انتقال «علوم الامم الاخرى» بالترجمة الى الثقافة الاسلامية، وكان من ضمنها ابحاث جلييلة في البصريات والكيمياء والطب والتشريح عدت، آنذاك، اجزاء من الفلسفة، وهكذا امتد تاثير هذه العلوم الى التفسير لا سيما تفاسير المعتزلة، كتفسير الجبائي وما امر به ابن تومرت من الحمل على التاويل (٧) والرماني (ت ٣٨٥هـ) ومن سار على منهجهم، ومن ذلك راي المطهر بن طاهر المقدسي المسمى «البدء والتاريخ» (٣٥٥هـ) الذي لا يستطيع ان يخفي سروره حينما يوفق الى تاييد احدى المعجزات بادلة العقل الذي يعده ام العلوم جميعها (٨) **فهو يعالج المعجزات النبوية ويبين جرياتها على** سنن الطبيعة، وينتهي الى استخلاص مهم، وهو ان الشيء قد يكون معجزة في وقت ويكون بعينه غير معجزة في وقت آخر، ويكون معجزة لقوم وغير معجزة لقوم آخرين (٩) لذلك، انقسم الناس، من القدماء، في قبول هذا الاتجاه او رفضه الى فريقين سنذكرهما ونذكر اقوالهما في المبحث القادم، على ان الرازي ممن مارس عملية التفسير العلمي في كتابه «مفاتيح الغيب» ضمن ادواته في التفسير، وايد هذا الاتجاه الزركشي والسيوطي وابو بكر بن العزي والرماني وغيرهم.

قابلهم، في رفضه والتشديد في انكاره، الشاطبي وابو حيان الاندلسي التوحيدي.

اما حديثا:

ففي القرنين التاسع عشر والعشرين، اندفع الاوربيون لاحتلال اجزاء من الوطن العربي والاسلامي، ونقلوا مع جيوشهم العلوم والتقنية التي توصلوا اليها، وكان المسلمون قد عاشوا خارج التطور الزمني للمعرفة سبعة قرون، فايقظهم هذا الاكتساح العسكري والثقافي والعلمي التجريبي، وبدا الصراع الحضاري في اعقاب الصحوة

الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم قراءة في المنهج آد عبد الامير كاظم زاهد

الاسلامية الاولى. فالمسلمون وجدوا هويتهم وذاتهم في التمسك بالقرآن والسنة والثقافة الاسلامية وان كانت القطيعة المعرفية قد امتدت عدة قرون، فهناك فجوة بين «الفكر والثقافة والعلم الاوربي» وبين الثقافة الدائرة حول النص القرآني وشروح السنة والفقه المتوقف تطوره لعدة قرون.

هذه الفجوة الحضارية شكلت مشكلة فكرية لا يمكن للمسلمين، في هذه الالونة، حرق المراحل لرفع النص وثقافة النص الى مستوى التحدى ات الفكرية والقفز على فجوة القطيعة، ولأنهم مغلوبون ماديا وثقافيا.

وهنا يلزم ان نفرق بين الوضعين:

فالمسلمون حينما انفتحوا على الفكر الغربي في العصر العباسي كانوا على مستوى من العافية الفكرية والعقدية والمنهجية بحيث تقبلوها وتمثلوها، ثم ميزوا ما ينفعهم منها مما لا ينسجم مع فكرهم، فقد اخضعوا الوافد الفكري لمعاييرهم الاسلامية، وهم الذين قادوا الوافد الفكري، ولم يستسلموا للوافد الغربي ويتيحوا له قيادة العقل الاسلامي.

وعلى الرغم من ذلك، كانت هناك الحركة الفكرية ازاء هذا الوافد، تحلله وتقييمه وتشخص المفيد منه، لان تلك الاجيال كانت متصلة في الابداع مع القرون الاولى المتصلة باصول الرسالة الاسلامية (القرآن والسنة).

بينما الوضع، في القرن العشرين، مختلف، فقد كانت الامة قد خرجت توا من قرون ستة لم تتحرك قواها الابداعية، وبين الامرين فارق كبير جدا (١٠).

فاستسلمت ثقافة المسلمين للوافد الفكري الغربي، فقاد العقل الاسلامي، ومصدق هذا الاستسلام ما جاء في المنار، وهو تفسير مدرسة الامام محمد عبده وتلميذه رشيد رضا الذي قال: «ان ادخال مباحث علوم الكون في التفسير هو من اهم اركانه، والعمل بهدى القرآن فيه... وكان سلفنا من مفسري السلف والخلف يذكرون ما يعلمون من اسرار الخلق وكذا ما يتلقونه عن اهل الكتاب» (١١) وذكر اقوال الاطباء في ضرر الخمر (١٢) وما قاله علماء الفلك في السماوات و الارض (١٣) وما قاله العلماء في تصرف الارواح والرياح واسبابها ومنافعها، ويرى استاذنا د. قحطان الدوري ان رشيد رضا قد اعطى لعقله الحرية الواسعة في تفسير الايات اعتدادا بعلمه وعدم تقيد به ببعض المسلمات عند العلماء (١٤).

ثم اعقبه محمد احمد الاسكندراني وغيره ممن سترد اسماءهم وكتبهم وادلتهم. قابل هؤلاء الشيخ محمود شلتوت وامين الخولي والعقاد وغيرهم في رد هذا الاتجاه واستندوا الى مجموعة استدلالات في الوقوف بوجهه، سنذكرها في المبحث القادم.

المبحث الثالث

مؤيدو التفسير العلمي وادلتهم ومعارضوه وادلتهم

كاي اتجاه جديد لا بد من ان يكون له من يتبناه ويستند في ذلك الى ادلة لتسويغه، وله من يعارضه وله ادلة يستند اليها لردده ومنعه، فالتفسير العلمي اتجاه جديد ظهر في القرن الرابع الهجري، وكان له في القرنين الخامس والسادس الهجريين دور، ثم خبا امره، وعاد ليظهر في القرن العشرين، ولا يزال مستمرا. فمن تبناه في ظهوره الاول؟ وما ادلته؟ وما المناقشات التي دارت حول هذه الادلة؟ ومن رفضه في ذلك الظهور؟ وما ادلته؟ وما مناقشات رده؟ وكذلك فمن تبناه من المحدثين وما ادلته ومناقشتها؟ ومن رفضه؟ وما هي ادلته ومناقشتها؟ المطلوب الاول: متبنو اتجاه التفسير العلمي

١. القدماء:

عرف من القدماء ممن ايد التفسير العلمي ابو حامد الغزالي، فقد ورد عنه في «احياء علوم الدين» انه يذهب الى ان في القرآن سبعة وسبعين الفا ومنتى علم ان لم نقل هذا العدد مضروبا في اربعة، لان لكل كلمة في القرآن حدا ومطلعا وظهرا وبطنا، ويرى الغزالي تبعا لذلك ان في القرآن رموزا ودلالات على النظريات والعقليات يختص اهل الفهم بادراكها (١٥).

والف، بعد «احياء علوم الدين»، كتابه الاخر الذي سماه «جواهر القرآن»، حيث ذكر في الفصل الخامس منه اصناف العلوم التي لم تخرج بعد الى الوجود و«ما في قدرة الادمي في القرآن بالامكان والقوة» (١٦). معللا ذلك بان الظواهر الطبيعية جميعها افعال لله، ويمثل لذلك بامثلة كثيرة منها ما ورد في الفلك من ان الله قد قدر القمر منازل حتى عاد كالرجون القديم، وذلك ليعلم الناس عدد السنين والحساب، وان الشمس ليست ثابتة، انما هي كوكب متحرك لقوله تعالى:

(والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز الحكيم) (١٧)

وبهذا يظهر توظيف الغزالي للثقافة العلمية التي توضح النص، ويؤيد ظهورها في تفاسير المسلمين الامام الرازي في «مفاتيح الغيب»، ففي تفسيره لقوله تعالى: (هو الذي انزل من السماء ماء) (١٨) ناقش مدى تصور نزوله من السماء (الكواكب)، ام من عموم ما علا الانسان (الغيوم والسحاب المرتفعة)، وينقد راي الجبائي في ما ذهب اليه من انه عبارة عن بخار متجمع يتصاعد، فيتصل بسقف املس وهو الهواء البارد الذي يوجب الثقل والنزول، وحيث ان الارض كروية الشكل، فان الماء يرجع الى نقطة المركز (١٩)، فيرى ذلك مما يحتاج الى رؤية اعرق. بينما يذكر، في مكان آخر، انه صعد الى جبل «فردا خان» في «كابل» ليرى المطر ينزل من السحاب. ومع هذا الاتجاه المحدث البيهقي الذي يذكر في، سننه، في باب اصول العلم، ان في القرآن خبر الاولين والآخرين (٢٠).

ثم يعضدهم الزركشي في «البرهان» تعقيبا على قول الله تعالى:

الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم قراءة في المنهج آد عبد الامير كاظم زاهد

(ما فرطنا في الكتاب من شيء) (٢١) او قوله تعالى:
(ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء) (٢٢) فيرى ذلك مستنداً لما في القرآن من
اشارات لاصول العلوم والعقليات.

وفي اثناء تعداده للعلوم الموجودة في القرآن يقول: «ونظر قوم الى الايات الدالة
في حكم الله في الليل والنهار والشمس والقمر ومنازله والنجوم والبروج، فاستخرجوا
منه حكم المواقيت، ويرى ان القرآن حوى علوم الطب والهيئة والجبر واصل
الصنائع» (٢٣).

تابعه على هذا المنهج السيوطي، وقد اورد مجموعة آيات دالة على اصول العلوم
اذكر منها ، (٢٤) مثلاً، مثاله في الايات التي لها صلة بالطب، فقال في قوله تعالى
عن العسل انه (شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس) (٢٥) ، وفي مجال الصناعات
(آتوني زبر الحديد) (٢٦).

هذا الاتجاه تبناه ابو بكر بن العربي في كتابه «قانون التاويل» الذي يرى ان علوم
القرآن (٧٧٤٥٠) علماً على عدد كلماته مضروبة في اربعة، ثم يضيف ان هذا دون
اعتبار التراكيب والروابط، لكنه يرى ان مجمل هذه العلوم لا تخرج عن التوحيد
والتذكير والاحكام، ويرى ان التوحيد يتحقق في معرفة المخلوقات، والعلوم اداة
لمعرفة وظائف اعضاء هذه المخلوقات. وفي التذكير ان كشف الاسرار في المخلوقات
ابلق ادوات التذكير، وفي الاحكام «منافع ومضار» في متعلقاتها، فحرمة الخمر
متعلقها المضرة، ووجوب الزكاة متعلقها المصلحة العامة للناس.

لذلك ذهب الرماني المعتزلي الى ان في النص القرآني فصول المعرفة جميعها.
ولهذا يقول السيوطي: «اشتمل كتاب الله على كل شيء، اما انواع العلوم فليس
منها باب ولا مسألة هي اصل، الا وفي القرآن ما يدل عليها وعدد علومه في عجائب
المخلوقات وملكوت السماوات، وما في الافق الاعلى وما تحت الثرى، وبدء الخلق» .
(٢٧) ولان هؤلاء في مؤلفاتهم موسوعيون، فقد ادرجوا التفسير العلمي في تفاسيرهم
ضمناً ولم يفردوه بمؤلف مستقل، ويظهر انهم ليسوا بحاجة الى تسويق هذا الاتجاه،
لعدم ظهور معارض له آنذاك.

٢. المحدثون:

ذكرنا، في المقدمات، ان العالم الاسلامي انقطع تواصله، بعد غيبة مفروضة
عليه، مع حركة العلم لمدة استمرت عدة قرون، وكان المسلمون اشبه بالنيام الذين
استيقظوا على مدافع نابليون حينما غزا مصر في القرن الثامن عشر (١٧٩٨م)، ومعه
التقنيات الغربية، وازاء هذا الحدث العظيم حاول المفكرون المسلمون تعويض
هزيمتهم الحضارية باظهار سمو المضامين العلمية في النص القرآني.

فكان ان الف باحث اسمه محمد بن احمد الاسكندراني، في سنة ١٢٩٧هـ، كتاباً
اسماه «كشف الاسرار النورانية القرآنية في ما يتعلق بالاجرام السماوية والارضية
والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية» في ثلاثة مجلدات. ثم الف عبد الله باشا
فكري رسالة قارن فيها بعض مباحث الهيئة بالوارد من النص القرآني في سنة

الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم قراءة في المنهج آد عبد الامير كاظم زاهد

١٣١٥هـ. ثم جاء كتاب عبد الرحمن الكواكبي «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»، وهو عبارة عن مجموعة مقالات وصف القرآن فيها بانه «شمس العلوم وكنز الحكم» (٢٨) . ان اهم ما يستفاد من تنظيرات الكواكبي ما كشف عنه من ثغرة في التفكير العلمي عند المفسرين، فقال: «ان السر في احجام العلماء عن تفسير الايات الكونية والاخلاقية في القرآن انهم كانوا يخافون مخالفة راي بعض السلف القاصرين في العلم، فيكفرون فيقتلون».

وعن اهمية التفسير العلمي يرى الكواكبي ان العلوم هي «الكاشفة عن اعجاز القرآن»، وان الاعجاز هو اهم مسألة في الدين، لم يفوها حقها من البحث، واقتصروا على ما قاله بعض السلف في فصاحته وبلاغته واخباره» (٢٩).

ويرى «انه لو اطلق للعلماء عناء التدقيق وحرية الراي والتاليف كما اطلق لاهل الخرافات لراوا فيه الالوف من آيات الاعجاز...»

ولراوا في كل يوم آية تتجدد مع الزمان والحدثان، لان في ظهور النص مؤيدا للمكتشف، اظهرا للاعجاز القرآني، ويعد شاهدا انه كلام لا ياتي به الريب، فاذا كان العلم قد اكتشف ان مادة الكون اثيرية فقد كان القرآن قد وصف السماء بانها دخان قال تعالى (ثم استوى الى السماء وهي دخان) (٣٠) وكون الكواكب في حركة دائمة قوله تعالى (وكل في فلك يسبحون) (٣١) .

ومن هؤلاء:

المرحوم مصطفى صادق الرافعي، في كتابه «اعجاز القرآن»، فقد عقد فصلا خاصا ب «القرآن والعلوم» قرر فيه «ان القرآن ب آثاره النامية معجزة اصلية في تاريخ العلم كله. الى ما شاء الله» (٣٢) ثم د. عبد العزيز اسماعيل الذي الف كتابا اسمه «الاسلام والطب الحديث»، المؤلف من مجموعة مقالات نشرها في مجلة الازهر، وقد طبع سنة ١٣٥٧هـ، وقد خلص فيه الى القول: «ان في القرآن سننا طبيعية ترجع اليها هذه العلوم»، ويرى ان في القرآن آيات لا يفهم معناها الحقيقي الا من درس العلوم الحديثة (٣٣)، ويرى انه سيأتي الوقت الذي يكون فيه العلماء الماديون اقرب الناس الى الدين (٣٤).

وقد استفاد من التراكم هذا الشيخ المفسر طنطاوي جوهري (ت سنة ١٩٤٠م) الذي ال ف تفسيره «الجواهر في تفسير القرآن الكريم» وغرضه منه ان تنقش عن اعين عامة المسلمين، فيفهموا العلوم الكونية ليرفعوا مدنيتهم الى اعلى ويكون داعيا الى درس العوالم العلوية والسفلية.

ويرى الشيخ الطنطاوي ان في القرآن من آيات العلوم ما يربو على سبعة وخمسين آية لم يعتن بها، بينما حفلت مئات قليلة من آيات الاحكام ب آلاف الكتب، ويرى ان الاسلام جاء لامم كثيرة، وان سور القرآن متممات لامور اظهرها العلم الحديث (٣٥)، ويرى انه اذا كانت معرفة آيات الاحكام فرض كفاية، فالآيات العلمية فرض عين لوجوب معرفة الله على كل فرد قادر (٣٦)، وهذا الانموذج يطور نظام التعليم الاسلامي، لان علوم البلاغة ليست هي نهاية لعلوم القرآن، بل هي علوم لفظه،

الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم قراءة في المنهج آد عبد الامير كاظم زاهد
والمطلوب اليوم علوم معناه، وخلاصة الدواعي ان تفسيره تخصص في علم الكائنات
في القرآن (٣٧).

ولم يلق هذا الاتجاه قبولا لدى الناس لانه، في ما يرون، حمل القرآن اكثر مما
تحمله آياته، ومن الوقائع الدالة على ذلك مصادرة السعودية لتفسير الجواهر (٣٨)
وعدم سماحها بدخوله الى بلاد نجد والحجاز (٣٩).

ومع هذا الاتجاه الالوسي وابن باديس ومحمد عبدالله دراز وحسن البنا وغيرهم.
استدلالات المجيزين وملخص ما يستدل به من تبني الاتجاه العلمي في تفسير
القرآن الامور الاتية:

١- ان الله تعالى امر بالتدبر في كتابه الكريم امرا على سبيل الوجوب العيني،
بينما امر بالتفقه باحكام الكتاب على سبيل الوجوب الكفائي، وان آيات العلوم الكونية
اكثر من سبعة وخمسين آية، بينما آيات الاحكام لا تعدو مئة وخمسين آية في اقل
الاراء، وخمسة في اكثر الاراء تقديرا مع المتكرر، فلزم من المقدمتين العناية من
الكل بالآيات العلمية.

٢- ان التوحيد والعقائد مما يجب تحصيله عقلا على نحو الاستقلال ولا تتم
معرفة الا بمعرفة عجائب الخلق، ولا يتم هذا الا بالدمج بين القرآن والعلوم، فهذا
المزج اكثر ترسيخا للعقيدة.

٣- ان هذا المزج يوضح اثبات البرهان او اقامته على عدم التعارض بين الحقيقة
الدينية والحقيقة العلمية، وهذا من صلب المعتقد، وفي هذا اثبات لاستمرار حاكمية
النص القرآني المعصوم على المنجز العلمي التجريبي.

٤- ان نتائج العلوم هي افعال الله في الكون، ومعرفة بوصفها صفات تعين على
التوحيد.

٥- ان في القرآن رموزا ودلالات موجودة فعلا، ولا تفسر بالآليات اللغوية انما
تعرف بالتفسير العلمي.

٦- ان نهضة المسلمين تستدعي هذا الاتجاه لان هذا هو زمن التحضر التقني،
ولان الخطاب القرآني خطاب لحاضر الانسانية ومستقبلها كما هو خطاب للجيل الاول.

٧- ان نبوة محمد (ص) وكتابه (القرآن) نبوة خاتمة للنبوات، وكتابه خاتم للكتب
السمائية فهي نبوة مستمرة، تحتاج الى معجزة مستمرة، لقوله تعالى (سنريهم آياتنا في
الافاق وفي انفسهم حتى يتبين انه الحق) (٤٠) وفي الآية غير دلالة على ارادة
المستقبل، منها سين «نريهم» وكون الجملة مغيية ب «حتى» ، والغاية «يتبين انه
الحق» لكل العالم، ولا يخضع العالم المعاصر الا للعلم التجريبي لانه لا يقبل تعدد
الاراء.

مناقشة الادلة لم تؤخذ هذه الادلة ماخذ القبول المطلق، وانما نوقشت بمجموعة من
المناقشات منها:

١- ان الوجوب العيني على المسلم، لادراك العقيدة، لا يتطلب الغوص في اسرار
العلوم، فذلك غير مقدور لكل باحث، لذلك يكتفى منه بما يورث الاطمئنان واليقين

الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم قراءة في المنهج آد عبد الامير كاظم زاهد
الاولي بالعقيدة باي الوسائل. وقياس الاحكام على الايات الكونية قياس فيه ما فيه، لان
مرجعية الحكم للنص، ومرجعية العلوم للتجربة، والاشارات القرآنية ليست اساسا في
التجريب.

٢- لا نسلم بان التوحيد لا يحصل الا بمعرفة عجائب الخلق حصرا، انما يحصل
بالعقليات كذلك.

٣- ان عدم التعارض مفهوم عقلي، اما تحقيق مصاديقه فيجب الا يتكلف المسلم
في تحميل الاية ما لا تحتل، وكذا حاكمية النص مفهوم عقلي قاطع.

٤- وكذلك اعتبار العلوم افعال الله، فلا وجوب على المسلم معرفة افعال الله، بل
يكتفي بمعرفة وجوده وصفاته على وجه الاجمال.

٥- وجود رموز ودلالات للعلوم في القرآن لا شك فيه، لكن تفسيرها بكل افتراض
تجريبي فيه خطر كبير، لارتباط النص القطعي بالفرضيات.

٦- يمكن تحقيق نهضة علمية للمسلمين من دون تحميل النص القرآني ما لا
يحتل، اذ ان تحقيق هذه النهضة، في الامم الاخرى، لم يكن حاصلا من هذا الطريق،
فكل ما سبق للتدليل على وجاهة هذا الاتجاه، ليس قطعيًا في نتائجه انما هو مما يقبل
التعددية في الاستفادة منها، ومتى تطرف دليل الاحتمال ضعف به الاستدلال.

المطلب الثاني: معارضو هذا الاتجاه ا الاقدمون لعل اول من عرف بمجاهرته
برفض هذا الاتجاه هو الاصولي المغربي الشاطبي، حيث ذكر في كتابه «الموافقات»
ما نصه:

«ما تقرر من امية الشريعة وانها جارية على مذاهب اهلها ينبني عليه قواعد:
منها: ان كثيرا من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد، فاضافوا اليه كل
علم يذكر للمتقدمين والمتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق وعلم الحروب
وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون واشباهها، وهذا اذا عرضناه على ما تقدم
لم يصح».

ويرى «ان السلف كانوا اعرف بالقرآن وعلومه وما اودع فيه، ولم يبلغنا ان احدا
منهم تكلم في شيء من هذا المدعى.. فلو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبغنا منه ما
يدلنا على اصل المسالة الا ان ذلك لم يكن، فدل على انه غير موجود عندهم، وذلك
دليل على ان القرآن لم يقصد فيه تقرير بشيء مما زعموا. نعم، تضمن علومًا هي من
جنس علوم العرب، او ما ينبني على معهودها مما يتعجب منه اولو الالباب، ولا تبلغه
ادراكات العقول الراجحة دون الاهتداء باعلامه والاستنارة بنوره، اما ان فيه ما ليس
من ذلك، فلا» (٤١).

ويقصد بهذا القول:

ان الشريعة خاطبت اول ما خاطبت امة لا تقرا ولا تكتب وليس لها علوم
ومعارف، فافتضى ان يكون فهمها لا يحتاج الى تغلغل في العلوم الكونية، لان من
تلقاها امي على الفطرة، ولو لم تكن كذلك لما وسعها جمهور الخلق، والقرآن اذا

الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم قراءة في المنهج آد عبد الامير كاظم زاهد

اشار الى بعض العلوم فليس الا الى المعهودة عندهم كعلم النجوم والانواء والتاريخ والطب البدائي.

الا ان محقق الكتاب الشيخ عبدالله دراز لم يمر على هذا التقرير، على الرغم من التزامه باخراج النص فقط، فقال: اما ان القرآن لا يجيء في طريق ادلته ما يوسع ادراك معانيه واتقانه، فهو محل نظر، واذا كانت معلومات القرآن في المعهود عند العرب فان وصفه للنعيم والعذاب ليست من معهودات العرب، وكذلك الاسراء والمعراج (٤٢).

كل ما هو حق في رأي الشاطبي هو انه لا يصح ان يتكلف في فهم كتاب الله ما لا حاجة للهداية به.

وتابعه على هذا المفسر النحوي ابو حيان الاندلسي التوحيدي، الذي اغرق تفسيره «البحر المحيط» بالعلل النحوية، وراى ان اغراق النص «بعلل التركيب» اللغوية والنحوية كاف لان يبعده عن المضامين العلمية.

ب- المحدثون عارضوه من المحدثين الشيخ محمود شلتوت، شيخ الازهر، في مقالات كتبها في مجلة «الرسالة» سنة ١٩٤١م، وامين الخولي صاحب «التفسير البياني» وزوجته المرحومة بنت الشاطي عائشة عبد الرحمن التي اوجزت قولها بانه: «لم يختلف الناس في اعجاز القرآن من جهة بلاغته، ولكنهم اختلفوا في كونه هل هو وجه ام هو جوهر الاعجاز، اما الاعجاز العلمي فقد اختلفوا فيه وجهها وجوهرها والمطلوب اتباع ما اتفق عليه، والاحتياط في ما اختلف فيه اهل العلم تركه».

ومحمد رشيد رضا الذي عد هذا الاتجاه صارفا يصرف الناس عن القرآن وهديه، وينعى على الرازي ما اورده في تفسيره ومن قلد الرازي اي طنطاوي جوهري. ثم عارضه المراغي، ففي تقريره لكتاب «الاسلام والطب الحديث» اوضح انه لا يرضى عن هذا المسلك.

اما الذهبي، في اطروحته «التفسير والمفسرون»، فقد انتقد التفسير العلمي من خلال عدة مقدمات منها: اعتماده معاني لمصطلحات حديثة على الفاظ قرآنية ثبتت معانيها في القاموس، فهل يعقل عنده ان الله خاطب اناسا بالفاظ يريد بهامعاني ستظهر بعد عشرات القرون، ويرى ان من اسس الكلام البليغ ان يكون وفقا لمقتضى حال المخاطبين، والتفسير العلمي يחדش كون النص بليغا لانه لم يوافق مقتضى حال المخاطبين اي الجيل الاول، وعقائديا فان «ربط النص بالافتراضات او النظريات العلمية التي لم تصل بعد الى درجة القطع، اي استحالتها الى قوانين علمية قاطعة، يعرض النص الى التشكيك والريب» (٤٣) ووافقهم محمد عزة دروزه وعباس العقاد ومحمد كامل حسين وشوقي ضيف وصبحي الصالح، وسيد قطب.

ملخص حجج المعارضين ١ ان التفسير العلمي هو تفسير للقرآن بالرأي الذي ورد عليه النهي في الكتاب بقوله تعالى: (ولا تقف ما ليس لك به علم) (٤٤) وقوله: (وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم) (٤٥) فحصره بالمأثور وفي السنة لقوله(ص):

الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم قراءة في المنهج آد عبد الامير كاظم زاهد
«من قال في القرآن براهيه فليتبوا مقعده من النار» وفي حديث آخر «فاصاب فقد
اخطا».

٢- ان القرآن كتاب هداية، فالهداية هي الاصل والعلم دليل عليها، والاتجاه العلمي
يجعل العلم هو الاصل والقرآن دليل عليه. فالعلم وسيلة للهداية، والاتجاه العلمي ركز
عليها واهمل الغاية، واذا كان العلم القطعي مفسرا للحقيقة القرآنية الا انه ليس المسلك
الوحيد، في حين ان الاتجاه اعتبره المسلك الوحيد. اما ربط النص بالفرضيات
والنظريات فهو تعريض لعقيدة المسلم للزلزل اذا ثبت بطلان تلك النظرية، ثم اذا كان
التفسير بالعمليات هو الكاشف الوحيد عن النص فبم يفهم غير العالم بالطبيعية النص
القرآني، وهو خطاب شامل عام؟.

٣- واذا وقفنا على نصوص قرآنية نجد فيها اشارة للعمليات فان ذلك اشارة الى
كونه في اللوح المحفوظ مثل (ما فرطنا في الكتاب من شيء) (٤٦).

٤- لما كان التطور العلمي عرضة للزلل والنقض، فربط النص، كما تقدم، عرضه
لزلزلة عقيدة المسلم، فاذا كان في نفسه مباحا، فان غلقه ورده، سدا للذريعة، موقف
وجيه.

٥- الاتجاه العلمي لا يمتلك منهجا صارما، لذلك ترى اصحابه ينتقلون بسطحية
من علم الى آخر انتقالا ارتجاليا وسطحيا ومع ذلك يربط بالنص.

٦- عملية ربط «الاتجاه»، بوصفه المجلي للاعجاز القرآني، فيه ما فيه من التعميم
غير العلمي لامور:

فاولا: ان اعجازه ثبت لغة، ونحو، وصرفا، وبلاغة، ونظما، واسلوبا، ولا يزال
اعجازه قائما على هذا الاساس، فلا حاجة لما يؤكد ما هو قائم ثابت غير متحدى.

وثانيا: ليس في التفسير العلمي معنى الاعجاز الاصطلاحي لان المعجزة امر
خارق للعادة حاضرا، والتفسير العلمي اليوم يؤكد ما لم يعد خارقا للعادة، والمعجزة
من شروطها ان تكون سالمة عن المعارضة، وقد عارضها الكفار، بل هم الذين
تابعناهم في اعمالهم ملتزمين لهم اصلا قرآنيا.

٧- في التفسير العلمي خرق لما ساد في الثقافة العربية الاسلامية من تقدير عظيم
لاراء الصحابة والتابعين والائمة المجتهدين في التفسير، وهذا السائد يفترض انهم
فهموا التنزيل اكثر ممن جاء بعدهم، فاذا ظهر اتجاه يفسر القرآن بمالم يرد عن
«السلف» فكانه يتهمم بالجهل، وهذا خلاف السائد والمسوق بانه متفق عليه. وهذا
المعنى اشار اليه الشاطبي كما مر، ويوضحه ابن تيمية الذي يرى ان الصحابة اذا
اجمعوا على معنى لفظ قرآني، فلا يجوز الخروج عنه لانه بالاجماع اكتسب القطع
وما خالف الاجماع ضلالة، ولو اختلفوا على قولين، فليس لنا الاختيار بينهما وليس
لنا الخروج عنهما للسبب نفسه، المذكور اعلاه، وعلى هذا الافتراض يشن ابن تيمية
هجوما عنيفا على الرازي والامدي وابن الحاجب، ويؤيد هذا المنحى من يستعين بان
اسباب النزول دليل على تناغم النص مع الواقع الذي خاطبه النص اول مرة، او ثقافة
ذلك الواقع، فكيف يصح الخروج عنه (٤٧).

مناقشة الادلة :

١- لا نسلم بان التفسير العلمي هو تفسير للقرآن بالرأي، لانه يستند الى حقائق علمية هي من حقائق التكوين، اذا كان مستنده قاطع علمي، بل هو ليس من الرأي المذموم قطعاً ان سلمنا انه اعمال للنظر والرأي في ايضاح النص القرآني. فلا ترد عليه النصوص اعلاه وقد فرض التفسير بالرأي منهجه ومشروعيته في ثقافة القرآن بعد الجيل الاول، فهذا الاحتجاج مردود اصلاً، اي من جهة كبراه وصغرياته.

٢- كون التفسير العلمي يقلب المطلوب من انه يركز على الوسائل ويهمل الهداية فهذا مقترح لتعديل منهجه لا رفضه مطلقاً، لا سيما وان معارضي هذا الاتجاه يركزون على انهم انما يريدون تعميق الهداية، ونصيحتهم بان لا يجعلوه المسلك الاساس في التفسير اعتراف ضمني بمشروعيته على الا يكون هو حصراً الاداة الكاشفة عن معنى النص، واتهامه بالتسرع في ربط النص بالافتراضات والنظريات العلمية نصيحة اخرى، فلو وجد قاطع علمي وتم ربط الاية به فان الاعتراض يسقط جملة. واستبعد ان يعرض هذا المسلك عقيدة المسلم للزلزل فان عددا هائلاً مما تنباه اهل الحديث من روايات موضوعية كرواية الذبابة، لم تزلزل عقيدة المسلم، انما انتقد النص، ولم يتنازل عن المعتقد، ولا يرد اعتبار الرد سدا للذريعة هنا، فضلاً عن كون هذه القاعدة هي نفسها بحاجة الى اثبات كونها اصلاً في الاصول، اما كونه ليس اعجازاً ابتداءً فهذا صحيح، لكنه اعجاز انتهاء، لان نصاً مضى على نزوله عشرات القرون لا يصطدم بحقيقة علمية، بل يجد المسلم ان جميع المكتشفات العلمية القطعية لها اصولها في القرآن ويتوافق النص معها، فوقوف المسلم على ذلك يعزز ايمانه ويتحدى به اهل الكفر، ولا ارى للاعجاز مهمة فوق هذه.

اما انه تعبير عن هزيمة المسلمين امام حضارة اوربا، فهذا دافع، عند اوائل المحدثين، وقد انتهى، ولا يزال منهجه يترصن في انه بحث موضوعي غير متموضع.

اما سلطة السلف الثقافية. فهذا من اخطر ما يوجه خصوم هذا الاتجاه نقده به، الا انه:

١- ان سلطة السلف الثقافية ليس لها سند معتبر من النص قاطع في دلالته، وان ورد في الحديث، بل هو من آثار اوضاع سياسية حصلت في التاريخ الاسلامي وتثبيت لمواقف السلطات الاموية بعد ان اعوزها نص في شرعية سلطتها، فالسلف محترمون جميعاً وآراؤهم محل تقدير كبير في حدود ازمانهم وثقافتهم ومدى وعيهم للنص، اما ان تعداجتهاداتهم مرجعاً فهذا شيء يضيفه اهل السلف الى النص المعصوم، بلا مسوغ او دليل شرعي، وهو مدعاة لتوقف التفكير والتدبر عند الاجيال الاخرى ومصادرة للعقل الاسلامي المتفاعل مع الثقافات المستجدة، والحضارات المتطورة، بل بخطاب الاجيال الاولى فقط لا نستطيع ان نفهم عصرنا، ناهيك عن محاوره اهل عصرنا ودعوتهم للايمان بالاسلام.

الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم قراءة في المنهج آد عبد الامير كاظم زاهد

٢- ان هذا يتعارض مع ديمومة المخاطبة القرآنية للأجيال، وهذا الاصل يتضمن اعتقاداً لا يتطرق اليه ريب، وهوان اللفظ القرآني يتضمن عشرات المعاني لكل جيل حظه منها بقدر ما اوتي من وسائل استمداد المعرفة من النص، لان النص القرآني نص معصوم مطلق عن محدوديات الزمن والبيئة ونسبية المعرفة، فاذا حصرنا معاني النص بفهم جيل او عدة اجيال باستثناء اقوال المعصوم نكون قد عاملناه على انه «نص تاريخي» له فاعليته فقط في ازمان محدودة، فاما ان نكون بحاجة الى نبوة جديدة وكتاب جديد، وهذا خلاف ما قرره الاسلام، او نحيل امرنا الى العقل دون النص وفي ذلك خروج عن المعتقد المقرر في قوله تعالى: (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه) (٤٨) او «حلال محمد حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة».

المبحث الرابع

ضوابط الاتجاه العلمي في تفسير القرآن

ومن خلال استعراض الباحثين لادلة المجيزين، وادلة المانعين، اشتق بعضهم بعض الاصول والضوابط المنهجية لصالح هذا الاتجاه. وفي ما ياتي ابرز تلك القواعد:

١- ان لا يخالف المفسر القواعد اللغوية والبلاغية، ويجب عليه ضبطها وايضاها في النص، لانها الشكل الاسلوبي للكشف عن المعاني، لان معاني المفردات مرجعها اللغة او العرف او الحقائق الشرعية، وبلاغة التراكيب كاشفة عن المعاني التي يطمئن المفسر الى انها مراد الله تعالى.

٢- ان يكون التفسير العلمي واحداً من آليات ايضاح المفاهيم القرآنية، على ان يتقدم عليه التفسير بالمأثور اذا ثبت صدوره عن المعصوم، ولم يتعارض مع قاطع عقلي او علمي.

ويكون صفة التفاسير غير المتعارضة مع المأثور والعقل والعلم القطعي هو الايضاح التالي، ثم يردف ذلك بالتفسير العلمي بوصفه واحداً من ادوات ايضاح معنى النص، او اعتباره مفسراً للآية في وجه من وجوها. والا يضيع الهدف من الآية (الهداية والارشاد) في غمرة تفسيره لان الاستناد الى الحقائق الكونية العلمية لا يتم من اجلها هي، وانما لاستخدامها لاغراض الهداية، اعتماداً على رجحان المنهج التكاملي الشمولي، لان تكاملية الثقافة، باختصاصاتها جميعها، اقرب الى تفسير النص المطلق، لثبوت نقص النظريات التي تركز على العامل الواحد في تفسير الكون والتاريخ.

٣- ان لا يتعسف المفسر في تحميل الآية ما لا يتحملها ظاهرها، واذا تحول الى التفسير الباطني فعليه ان يكشف عن هذا المأثور في سنده، وطبيعة متنه، اذا دله المأثور الى خلاف الظاهر.

٤- الا يتسرع المفسر للقرآن تفسيراً علمياً بربط الآيات بالاراء العلمية والافتراضات والنظريات التي لم تكتسب درجة القطع، الا على وجه الاشارة المحتملة

الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم قراءة في المنهج آد عبد الامير كاظم زاهد

الى ان هذه (النظريات) ربما تكون من مصاديق الالية، والا ينتقل في التفسير انتقالا مرتجلا من علم الى آخر وعلى نحو السطحية، لئلا يكون هذا الاتجاه مدعاة للزلل ويسد بابيه سدا لذريعة الزلل نفسه.

٥- الا يسمى هذا التفسير «اعجازا» قرآنيا، لان الاعجاز يتم بمعجزة، والمعجزة «امر خارق للسنن الطبيعية، المقرون بالتحدي، والسالم عن المعارضة»، وهذا التفسير تم بادوات ليست خارقة للسنن، لانها جرت وفقا لقانون العلية الكونية الكبرى والعلل المباشرة، وان هذه العلوم كانت من انتاج غير المسلمين غالبا، وهي وان كانت مقرونة بتحديهم الا انه لا يمكن تحديهم بما انتجوه. ولذلك فالعلم، المستفاد من القرآن، ضمن هذا الوضع ليس سالما عن المعارضة، واذ اصح تسميته اعجازا فهو اعجاز انتهاء وليس ابتداء.

٦- التفسير العلمي، اضافة الى الضوابط المتقدمة، يحتاج الى منهج متعقل ووسطي وقانون محكم للتاويل، فاذا كان التفسير العلمي قاطعا علميا، والالية المتعارضة، معه ان وجدت قاطعة في دلالتها، اي لا تتحمل وجها آخر، فهذا الفرض غير متصور لان القاطع العقلي والقاطع العلمي لا يصطدمان مع قاطع قرآني. اما اذا كان قاطعا، والالية ظنية الدلالة وتوافقا فلا بحث، ولكن دون القول ان ذلك قطعيا مراد الله، اما اذا تعارضا حملنا الالية على وجه آخر، واذا كان التفسير العلمي ظنيا غير ثابت والالية قاطعة الدلالة، فيجب التمسك بمدلول القرآن.

ادلة موقفا من التفسير العلمي يمكن، من خلال العرض المتقدم، ان نستخلص اننا نرى جواز التفسير العلمي للقرآن شريطة خضوعه للضوابط المحكمة والمنهج الصارم، وذلك للدلالة الاتية:

١- لما تم تفصيله في المقدمات ان جوهر الحقيقة واحد، وافضل تعبير عنها المنقول بالوحي فايضاحها من خلاله عمل منسجم مع هذا التصور، اثبات التطابق مع القاطع العلمي والعقلي دليل على كون المنقول بالوحي صادر من عند الله تعالى الذي يترتب عليه الالتزام باوامره ونواهيه.

٢- كون ذلك مدركا لارتباط القوانين الطبيعية والقوانين التشريعية وتكاملها، الامر الذي يوجب الالتزام بالمنهج القرآني في حركة الحياة والكون والانسان.

٣- كون القرآن قانونا كونيا ابديا، فليس فيه سلطة ثقافية لغير المعصوم، فكل جيل له تجلياته من هذا النص.

٤- كون النص القرآن يحفل بالكثير من الايات المصراحة بالسنن الكونية والمشيئة الى غيرها، وغالبا ما تختم بالامر بتدبرها ودراستها وتوظيفها للتوحيد. ومن تلك الايات:

(والقى في الارض رواسي ان تميد بكم) (٤٩) .

(وجعلنا من الماء كل شيء حي) (٥٠).

(الم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) (٥١) .

الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم قراءة في المنهج آد عبد الامير كاظم زاهد

- (أولم ير الذين كفروا ان السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما)(٥٢).
- (ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السماوات والارض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران)(٥٣).
- (اذا زلزلت الارض زلزالها واخرجت الارض اثقالها)(٥٤).
- (ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون)(٥٥).
- (ويرى الذين اوتوا العلم الذي انزل اليك من ربك هو الحق)(٥٦).
- ٥- ما ورد في حديث الامام موسى الكاظم (ع) لهشام بن الحكم (رض): «يا هشام ما بعث الله انبياءه ورسله الى عباده الا ليعقلوا عن الله، فاحسنهم استجابة احسنهم معرفة، واعلمهم بامر الله احسنهم عقلا، واکملهم عقلا ارفعهم درجة في الدنيا والاخرة».
- ٦- ما قاله الامام الصادق (ع) لزيد بن الحسن (رض): «من كانت له حقيقة ثابتة لم يقيم على شبهة هامة حتى يعلم منتهى الغاية وبطلان الحادث من الناطق عن الوارث» (٥٧).

هوامش البحث :

- ١- ابن رشد ، فصل المقال ، ص ٣٣ .
- ٢- سورة البقرة ، الآية ٢٨٦
- ٣- سورة الطلاق ، الآية ٧
- ٤- سورة محمد ، الآية ٢٤
- ٥- سورة ص ، الآية ٢٩
- ٦- الذهبي ، التفسير والمفسرون ، ٤٧٣/٢ .
- ٧- منز ، الحضارة الاسلامية ، ٣٤٧/١ .
- ٨- المقدسي ، البدا والتاريخ ، ١٧٥/١ .
- ٩- المصدر نفسه ، ١٧٣/٤ .
- ١٠- زاهد ، دور الجامعات ، ص ٨ .
- ١١- رضا ، تفسير المنار ، ١٥٤/٩ .
- ١٢- المصدر نفسه ، ١٥٩/٢ .
- ١٣- المصدر نفسه ، ٣٩٧/٨ .
- ١٤- الدوري ، محمد رشيد رضا ، بحث في مجلة دراسات اسلامية ، ص ٣٠٠ .
- ١٥- الغزالي ، احياء علوم الدين ، ١٣٥/٣ .
- ١٦- الغزالي ، جواهر القرآن ، ص ٣١ - ٣٢ .
- ١٧- سورة يس ٣٨
- ١٨- سورة الانعام ، الآية ٩٩
- ١٩- الرازي ، مفاتيح الغيب ، ١٠٢/٢ .
- ٢٠- السيوطي ، الاتقان ، ٢٤/٤ .
- ٢١- سورة الانعام ، الآية ٣٨
- ٢٢- سورة النحل ، الآية ٨٩
- ٢٣- الزركشي ، الرهان في علوم القرآن ، ٢٢/٤ .
- ٢٤- السيوطي ، الاتقان ، ٢٤/٤ .

- ٢٥- سورة النحل ، الآية ٦٩
- ٢٦- سورة الكهف ، الآية ٩٦
- ٢٧- السيوطي ، الاكليل ، ص ٥-٢ .
- ٢٨- الكواكبي ، طبائع الاستبدال ، ص ٢٢ .
- ٢٩- المصدر نفسه ، ص ٢٣ .
- ٣٠- سورة فصلت ، الآية ١١
- ٣١- سورة الانبياء ، الآية ٣٣
- ٣٢- الرفاعي ، اعجاز القرآن ، ص ١٠٨ .
- ٣٣- عبد العزيز ، الاسلام والطب الحديث ، ص ١ .
- ٣٤- المصدر نفسه ، ص ١٢١ .
- ٣٥- الجوهرى ، جواهر القرآن ، ١٩/٣ .
- ٣٦- المصدر نفسه ، ١٩/٣ .
- ٣٧- المصدر نفسه ، ٥٣/٢٥ .
- ٣٨- الذهبي ، التفسير والمفسرون ، ٥٠٨/٢ .
- ٣٩- الجوهرى ، ٢٣٨/٢٥ .
- ٤٠- سورة فصلت ، الآية ٥٣
- ٤١- الشاطبي ، الموافقات ، ٦٩/٢ .
- ٤٢- المصدر نفسه ، ٦٩/٢ .
- ٤٣- المصدر نفسه ، ٦٩/٢ .
- ٤٤- سورة الاسراء ، الآية ٣٦
- ٤٥- سورة النحل ، الآية ٤٤
- ٤٦- سورة الانعام ، الآية ٣٨
- ٤٧- الذهبي ، التفسير والمفسرون ، ٤٩٢/٢ .
- ٤٨- سورة آل عمران ، الآية ٨٥
- ٤٩- سورة النحل ، الآية ١٥
- ٥٠- سورة الانبياء ، الآية ٣٠
- ٥١- سورة الفرقان ، الآية ٤٥
- ٥٢- سورة الانبياء ، الآية ٣٠
- ٥٣- سورة الرحمن ، الآية ٣٣
- ٥٤- سورة الزلزلة ، الآية ١
- ٥٥- سورة البقرة ، الآية ١٦٤
- ٥٦- سورة سبا ، الآية ٦
- ٥٧- ابو زيد ، مفهوم النص ، ص ٧٢ .

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

- ١- آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي ابز ريده ط ٣ ١٩٥٧ القاهرة
- ٢- الخولي ، امين ، التفسير معالم حياته ، ومنهجه اليوم ، دار العلمين للطبع والنشر ١٩٤٤ م .
- ٣- الدوري ، قحطان : منهج رشيد رضا في التفسير ، بحث في مجلة دراسات اسلامية العدد ٣ السنة ٣ .
- ٤- الذهبي محمد حسين : التفسير والمفسرون ، دار الكتب الحديثة / مصر ط ٢ ١٩٧٦ م .
- ٥- الرازي ، الفخر : التفسير الكبير ، المطبعة البهية / الازهر / مصر .
- ٦- الرفاعي ، مصطفى صادق : اعجاز القرآن ، مطبعة الاستقامة ١٩٤٠ م .
- ٧- رضا ، محمد رشيد : تفسير المنار ، مطبعة المنار ١٣٤٦ هـ .
- ٨- ابن رشد ، فضل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، تحقيق محمود عمارة ، ط القاهرة .
- ٩- الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، مطبعة المعرفة ط ٣ بيروت / ١٩٧٧ .
- ١٠- السيوطي ، الجلال : الاتقان في علوم القرآن ، مطبعة العصرية بيروت ، صيدا .
- ١١- الشاطبي ابو اسحاق ، الموافقات في اصول الشريعة ، مطبعة المكتبة التجارية .

الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم قراءة في المنهج آد عبد الامير كاظم زاهد

- ١٢- الطباطبائي ، محمد حسين : الميزان في تفسير القرآن ، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات / بيروت ط ٣ ١٩٧٣ .
- ١٣- طنطاوي ، جوهري ، الجوهر في تفسير القرآن الحكيم ، مطبعة مصطفى الباب الحلبي ١٣٤٠ هـ .
- ١٤- ابن العربي : ابو بكر : احكام القرآن / مطبعة السعادة ١٣٣١ هـ .
- ١٥- الغزالي ابو حامد محمد بن محمد : احياء علوم الدين مطبعة لجنة نشر الثقافة الاسلامية / مصر ١٣٥٦ هـ .
- ١٦- الغزالي ، ابو حامد محمد بن محمد : جوهر القرآن ، مطبعة كردستان العلمية ١٣٢٩ هـ .
- ١٧- الكوكبي ، عبد الرحمن ، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، مطبعة الجمالية ١٩٢٣ م .
- ١٨- المطهر المقدسي : البدء والتاريخ طبع مكتبة المثنى بغداد / على طبعة باريس ١٩٠٣ م .
- ١٩- ندوة اعجاز القرآن ، مجموعة بحوث ، وزارة الاوقاف العراقية / بغداد ١٩٨٩ م .
- ٢٠- المظفر ، عبد الحسين ، الشافي في شرح الكافي (للكليني) ، مطبعة النعمان / النجف ، ١٩٧٦ .